

الرّحلات والأسفار

عالم الأسفار والأسرار

يُقال: «مَنْ سَافَرَ، عَاشَ أَلْفَ حَيَاةً». فَالسَّفَرُ لِيُسَمِّي مُتَعَّدَ الْعَيْنِ فَقُطُّ، بَنْ هُوَ خَدَاءُ الْعُقْلِ وَالرُّوحِ. عِنْدَمَا نُسَافِرُ نَكْتَشِفُ عَوَالِمَ وَلُغَاتٍ جَدِيدَةً، وَنَتَعَلَّمُ عَادَاتِ النَّاسِ، وَنَرَى مَنَاظِرَ لَمْ نَكُنْ نَتَصَوَّرُهَا.

فَمَنْ يَزُورُ صَحْرَاءَ الطَّاسِيلِي يُبَهِّرُ بِلَوْحَاتِهَا الصَّخْرِيَّةِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي تَعُودُ إِلَى الْآفِ السَّنِينِ، وَمَنْ يَقْصِدُ تِيمِقادَ أَوْ جَمِيلَةَ يَعْشُ لَحْظَةً مَعَ التَّارِيخِ الرُّومَانِيِّ. وَفِي الْقُرَى الْجَبَلِيَّةِ لِلْقَبَائِلِ أَوْ الْأُورَاسِ يَجِدُ الزَّائِرُ عَادَاتٍ ضَارِبَةً فِي الْجُذُورِ. أَمَّا مَنْ يَدْهُبُ إِلَى شَوَّاطِي جِيْجَلُ أَوْ سَوَاحِلِ وَهَرَانُ، فَيَتَوَقَّعُ جَمَالَ الْبَحْرِ الْأَزْرَقِ، وَصَفَاعَةَ نَسِيمِهِ،

أَمَّا الْمُسَافِرُ إِلَى أَقْطَارِ أَبْعَدِ فِيَجِدُ عَجَابَ تَسْلُبِ الْعُقُولِ: الْأَهْرَامَاتِ فِي مِصْرَ، سُورِ الصَّيْنِ الْعَظِيمِ، شَلَالَاتِ نِيَاجَارَا الْمَدْهُشَةِ، بُرْجِ إِيفِلِ السَّاحِرِ فِي فَرَنْسَا، وَفِي الْمَغْرِبِ ثَبَّهُرُ مَدِينَةُ فَاسِ الْعَتِيقَةِ وَأَسْوَاقُ مَرَاكُشِ الْزَانِ، بَيْنَمَا فِي تُرْكِيَا تَسْحُرُ إِسْطَنبُولُ بِمَسَاجِدِهَا وَجُسُورِهَا الْقُلُوبَ قَبْلَ الْأَعْيُنِ.

وَلَوْلَا جُرَاهُ الرَّحَالَةِ وَالْمُسْتَكْشِفِينَ لَمَا عَرَفُنَا كُلَّ ذَلِكَ. فَقَدْ اكْتَشَفَ كُرِيسْتُوفُ كُولُومْبُسُ وَأَمْرِيكُو فَسْبُوْنُشِي قَارَةَ أَمْرِيَكا، وَجَابَ أَبْنَ بَطْوَطَةِ الدُّنْيَا مِنِ الْمَغْرِبِ إِلَى الْهِنْدِ وَالصَّيْنِ، وَكَتَبَ رِحْلَاتِهِ فَصَارَتْ مَرْجِعًا لِلْأَجِيَالِ. وَقَدْ تَبَعَهُ رِحَالَةُ آخَرُونَ مِثْلُ مَاجِيَلَنَ الَّذِي دَارَ حَوْلَ الْعَالَمِ.

فَالسَّفَرُ يَفْتَحُ أَبْوَابَ الْمَعْرِفَةِ وَالْمُتَعَّدَةِ مَعًا، يُفْوَى فُضُولُنَا وَيُوَسِّعُ أَفْقَنَا وَيَفْتَحُ أَمَانَنَا نَوَافِدَ عَلَى الْخَضَارَاتِ. وَمَنْ لَمْ تَسْعِفْهُ الْفُرْصَةُ، فَلَيَعْلَمُ أَنَّ الْقِرَاءَةَ وَالْأَفْلَامَ وَالْفَصَصَنَ تَحْمِلُهُ هِيَ أَيْضًا فِي رِحْلَةِ عَجِيبَةٍ بِلَا تَذَكِّرَهُ وَلَا حَقِيبَةٍ! فَكُلُّ رِحْلَةٍ، حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ فِي خَيَالِنَا، تَجْعَلُنَا نَكْتَسِبُ عُمْرًا جَدِيدًا.